مدينة مصراته من خلال كتابات الرحالة هنريش بارت 1846م

نصرالدين البشير العربي
كلية الآداب والعلوم مسلاته جامعة المرقب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين. وبعد،،،

تعد كتابات الرحالة والمؤرخين من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثين في كتابة تاريخ المدن في التاريخ الحديث والمعاصر، وذلك لما تحمله من معلومات غاية في الأهمية من جميع المناحي السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، وغيرها من المعلومات، وإن كانت تحتاج إلى مراجعة وغربلة وتمحيص ومقارنة محتوياتها بمصادر أخرى، ومدينة مصراته الليبية من المدن العربية التي كان لها نصيب وحضور في جل الكتابات الخاصة بالرحالة والمؤرخين العرب والأوروبيين الذين زاروها، أو مروا بها، وذلك بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي المتميز في شمال إفريقيا، وكذلك لكونها تتوسط البلاد وتؤثر في الأحداث الحاصلة في شرق البلاد وغربها وجنوبها، وكذا تعتبر من المدن الليبية الكبرى التي لعبت أدواراً بارزة ومتميزة في شتى الجوانب وفي أغلب المراحل التاريخية بليبيا.

نحاول في هذه الورقة البحثية نقل ما دونه الرحالة الألماني هنريش بارت أثناء مروره بمصراته والإقامة فيها والإشارة إلى قيمة المعلومات التي دونها حول تاريخ المدينة بداية العهد العثماني الثاني.

ونظراً لأهمية مدينة مصراته وما تحتاج إليه من دراسات تاريخية معمقة في شتى الجوانب، دفعني هذا إلى البحث والدراسة في المعلومات التاريخية الواردة في مخطوط هنريش بارت الموسوم ب:**"جولات في البلدان المطلة على البحر المتوسط خلال السنوات 1845 – 1847م"**، وقبل الولوج إلى صلب الموضوع لابد من القول: إن تناول هذا الجانب في هذه الجزئية يؤدي إلى طرح تساؤلات كثيرة ومنها: من هو الرحالة بارت؟، وما هي الظروف التي كتب فيها هذا المخطوط؟، وما هي الانطباعات التي قدمها الرحالة بارت عن مدينة مصراته وسكانها؟. وغيرها من التساؤلات التي سنجيب عليها في هذا البحث، والذي سنحاول في شق أول منه التعريف بالرحالة هنريش بارت، والتعريف بكتابه والتطرق إلى الظروف التي تمت فيها رحلته، ثم سنتعرض في شق ثان لانطباعاته التي قدمها عن مدينة مصراته وسكانها.

وسيعتمد الباحث على بعض المصادر الرئيسية، وخاصة مدونات الرحالة والمؤرخين لتدعيم بعض المعلومات والحقائق التي سترد في متن البحث.

1- لمحات عن حياة هينريش بارت :

ولد هينريش بارت بمدينة هامبورغ في 12 فبراير 1821م وتوفي في برلين في 25 نوفمبر 1865م، يعود أصل والده إلى مقاطعة تورنغن الألمانية من أسرة تنتمي لطبقة الفلاحين، وانتقل في سن الشباب إلى هامبورغ لتعلم مهنة الجزارة، ويبدو أن مدينة المرفأ فتحت له آفاقاً أوسع بكثير من المهنة التي اختارها، فدخل مجال التجارة لا بل التجارة عبر البحار واستطاع الحصول على الثروة والجاه، فأسهم تحسن الوضع المادي لوالد بارت في حصول بارت الابن على المال اللازم لولوجه عالم الرحلة، وأما والدة بارت فكانت ابنة اسكافي من مدينة هانوفر، وبذلك فإن الأسرة التي نشأ فيها بارت كانت في الأساس متوسطة الحال وارتقى وضعها المادي بنشاط والده، الذي غرس فيه أيضاً حب النظام ويقظة الضمير والثقة بالنفس وأن يعيش مقتصداً[1].

وبرجوعنا إلى ما ذكره صهره والوريث لتركته ومؤلف سيرته غوستاف فون شوبرت Gustav Von Schubert فإننا نجد أن بارت عرف بنضوج مبكر وبطموح فكري، كما عرف بعناده وانكفائه فلم يكن يعرف المزاح واللعب ونشأ على القراءة والانكباب على الكتب وشعر وهو في التعليم المتوسط أن المواد الدراسية لم تكن لتلبي متطلباته، فأخذ يقرأ إلى جانبها كتب المؤلفين الإغريق والرومان، وظهرت موهبته اللغوية بإجادته للغة الإنجليزية وهو في الرابعة عشرة من العمر ثم شرع في تعلم اللغة العربية دون أن يفشي ذلك لأحد، كما برع في الرسم ووضع أثناء رحلاته الكثير من الرسوم التخطيطية التي غدت فيما بعد الأساس في تزويد كتاب رحلته

[1] - هنريش بارت، جولات في البلدان المطلة على البحر المتوسط خلال 1845- 1847م، ترجمة وتقديم عماد الدين غانم، جمع وترتيب ومراجعة نصرالدين البشير العربي، مخطوط تحت النشر، جامعة المرقب.

الكبرى ببعض الرسوم الشهيرة لمزدة، ومرزق، وغات، وإدري، وأغادس، وتمبكتو، وكنو وسواها وللآثار والعديد من الرسوم والنقوش الصخرية.

في العام 1895م، أي بعد مضي ثلاثون عاماً على وفاة بارت نشر الرحالة وعالم اللغات الإفريقية غوتلوب أدولف كراوزه 1850-1938م[1] (*) Gottlob Adolf Krause المعروف بدقته واهتمامه بالتعريف بمشاهير الرحالين ثلاث مقالات بعنوان: (هينريش بارت ملكاً بين الرحالين إلى أفريقيا) في الجريدة الروسية الجديدة[2]، قدم فيها معلومات طريفة عن الرحالة بارت ومن بين المواضيع التي ركز عليها طفولة بارت ونبوغه فيقول: (وهو في سن الطفولة كان يجتاح بارت شوق أجاج للعلم، فقد انقطع إليه إلى درجة أن اهتماماته الجادة وهو طفل أوجدت غربة بينه وبين أقرانه وأوساطهم المرحة، وكانت حجرة دراسته في البيت المزودة بمكتبة فيها أصناف الكتب، تمثل العنصر الذي كان بارت الشاب يشعر فيه بالطمأنينة، وتعرضت للدمار إثر حريق وقع في موطنه)[3].

وفي هذه الحياة الانطوائية، وفي ظل الخوف من أن تشتت العالم الخارجي قد يؤدي به إلى الغربة عن دراساته تطورت لديه انطوائية وعانى من الانغلاق، وهو وضع لم يعرف كيف يتخلص منه، ذلك أنه قد يؤدي إلى نفور منه أو يجرح من يعرفه، ويريد أن يتعمق في الوقوف على جوانبه الممتازة، أثناء فترة الدراسة كانت مجموعة أصدقائه القليلة العدد تعجب من الطاقة التي انقطع بها إلى العلم ضارباً الصفح عن مغريات مدينة كبيرة، وإن كان يقتصر على قضاء ساعات قليلة وسط أصدقائه حيث كان يشعر بالراحة، وهذه الطاقة التي منحته الجلد والشجاعة التي لا تلين وهذه الاستمرارية التي لا تنحني والمقترنة بتفكير مليء هي التي أوصلته إلى كل هدف وضعه نصب عينيه وشكلت مفتاح نجاحاته.

بعد أن أنهى بارت تعليمه في مدارس هامبورغ مسقط رأسه انتقل إلى برلين وبدأ في أكتوبر 1839م الدراسة بجامعة برلين وهو في سن الثامنة عشرة، وتأرجح اهتمامه بين التاريخ القديم والجغرافية التاريخية وكان من أبرز أساتذته، الجغرافي الشهير كارل ريز وتأثر به كثيراً ولقي دعمه الفعال إذ كان وراء ترتيب مسألة انضمامه إلى البعثة البريطانية القاصدة دواخل القارة الإفريقية وحقق في إطارها الرحلة الكبرى في أفريقيا التي اقترنت باسمه وجلبت له الشهرة في عالم الرحلة.

ما إن فرغ من الفصل الدراسي الثاني حتى توجه في صيف 1840م أو حسب عبارته حتى (حج) إلى إيطاليا وصقلية ومكث هناك حتى مايو 1841م وزار الآثار والمدن القديمة، هناك اجتاحه حب البحر المتوسط وسواحله، ففي أحد الأيام مع غروب الشمس عندما كان يقف أمام آثار سلينونت ولدت لديه فكرة دراسة الحضارات القديمة في بلدان حوض هذا البحر ومال إلى علم الآثار واعتبر متميزاً في دراسته علاقات كورنت التجارية وكانت موضوع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه التي حصل عليها بتقدير ممتاز في العام 1844م وهو في الثالثة والعشرين من العمر.

مع نيله درجة الدكتوراه من جامعة برلين بتفوق فتح أمامه باب العمل الأكاديمي على مصراعيه، بيد أن بارت رأى أنه من المبكر الالتزام بعمل محدد وساورته فكرة دراسة حضارات البحر المتوسط، ولما كان والده ذا مقدرة مالية تكفل له تحقيق مشروعه دون تردد أو تأخير ونجم عن ذلك تحقيق رحلته الأولى التي شملت بلدان شمال أفريقيا وشرقي البحر المتوسط، وخطط بارت أن ينشر تقاريره عن رحلته الأولى وهي موضوع بحثنا هذا، في جزئين بعنوان :-(جولات في بلدان البحر المتوسط) لم ينجز منهما سوى الجزء الأول وهو يشمل وصف الرحلة من طنجة حتى الإسكندرية، وأما وصف بقية الرحلة التي شملت مصر والشام وقبرص وتركيا مازالت محفوظة في دفاتر في أرشيف الدولة بهامبورغ وأغلبها مسودات تتطلب قراءتها جهداً كبيراً من العمل.

بعد عودته من رحلته في بلدان البحر المتوسط في 1847م عاد بارت للتفكير بالعمل في الجامعة وعندما فرغ من إعداد الجزء الأول من رحلته نشره في العام 1849م، ويبدو أن نسخة منه قد عرضت على الجامعة فاعتبرته علمياً كافياً لشغل درجة أستاذ مساعد في قسم الجغرافية بجامعة برلين، وبدأ محاضراته في الفصل الدراسي 1848- 1849م، بيد أن حضور الطلاب لمحاضراته وحلقة البحث التي خصصها في صيف العام 1849م لموضوع جغرافية الشمال الأفريقي لم تلق الإقبال الذي توقعه، فقد كان عدد الطلاب الذين سجلوا حلقة البحث قليلاً جداً مما أحبطه غاية الإحباط.

---

[1] - هو غوتلوب أودلف كراوزة، ولد عام 1850م في قرية صغيرة قرب مايسن التي تقع في جمهورية المانيا الديمقراطية حالياً، وكان أبواه فلاحين وهو الابن الثالث لهما، ومن أهم كتاباته ما كتبه حول مدينة غات الليبية. للمزيد انظر: عماد الدين غانم، تقارير غوتلوب أدلف كراوزة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1994م، ص20.

[3]- العنوان بالألمانية ، Neue Preussische Zeitung (Kreuzzeitung) Nr550, 552, 554

[3] - عماد الدين غانم، تقارير غوتلوب أدولف كراوزة، مصدر سابق، ص21.

توفى بارت في 1865م بعد إصابته بالتهاب حاد في المعدة والأعور وفي ظل ألم شديد لم يمهله سوى يومين توفي فجأة وعمره لم يتجاوز الخامسة والأربعين سنة، ولم يتهيأ لبارت أن ينجز أبحاثه حول اللغات الأفريقية التي جمع لها مادة ضخمة مازالت موجودة في أرشيف الدولة بهامبورغ، ثم دفن بارت في مقبرة كنيسة القدس في برلين وقد كتب على ضريحه ما يلي :-

(الأستاذ الدكتور يوهان هينريش بارت ولد في هامبورغ في 16 فبراير 1821م وتوفي في برلين في 25 نوفمبر 1865م هنا يرقد في راحة أبدية الباحث الذي درس دون كلل وبحث ورحل، كم تجول بين النخيل واستراح تحت أشجارها في البلاد المشمسة البعيدة عن موطنه، لقد وجد هنا تحت شجرة حور فضية في أرض الوطن الراحة الأخيرة) .

لا شك أن بارت قد تحمل أعباء يعجز عنها فريق عمل، ورغم ذلك تصدى لجميع التحديات بأشكالها بفهمه للعقلية التي يتعامل معها وحل المشاكل دون استعلاء بخلفيات عنصرية أو دينية. لقد كان مسيحياً بروتستانتياً متمسكاً بعقيدته، ولكنه يحترم عقيدة الآخرين وفهم الإسلام وقدره وأدرك أن المتشددين الذين أرادوا قتله أكثر من مرة لا يعبرون عن منطلق إسلامي سليم، والتشدد والظلامية ظاهرة شاذة تؤذي الجميع، ولم نجد في مؤلفه أي مس بعقيدة أو عرق ويمكن القول إن العربي والأفريقي والأوروبي يقرأ كتابه دون أن يجد فيه أي حرج، إنه رجل عاقل عالم يحترم العقل والعلم.

2- ظروف رحلته الساحلية وكتابته لمؤلفه حتى الوصول إلى مدينة مصراته:-

أثرنا استخدام مصطلح الرحلة الساحلية على رحلة بارت الأولى التي جال خلال السنوات الثلاثة التي استغرقتها من 1845-1847م في البلدان المتاخمة للبحر المتوسط بدءً من طنجة وحتى أزمير وذلك لتمييزها من حيث الاتجاه عن الرحلة الكبرى التي توجهت جنوباً من طرابلس إلى بلاد ما وراء الصحراء[1]، وكذلك من حيث أن دراسة حوض البحر المتوسط بأكمله ظلت حية في ذهن بارت وفعله يعود لاستكمالها عند توفر الوقت وظلت الرحلة الساحلية والرحلات التي تلت إنجازه لرحلته الكبرى مكرسة لدراسة السواحل في حين أن طريق الرحلة الكبرى كان عبر الجبال والبوادي والصحاري وصولاً إلى بلاد السودان الأوسط والغربي أو إلى حوض تشاد وبلاد الساحل الواقعة غربه[2].

تطلع بارت كما سبقت الإشارة إلى القيام برحلة في حوض البحر المتوسط وإلى دراسة حضاراته وأخذت هذه الفكرة تترسخ لديه منذ وقوفه في جنوب غرب صقلية مع غروب الشمس في مكان مرتفع ليطل منه على هذا البحر الأخاذ الذي يتوسط العالم القديم ويربط القارات الثلاث مع بعضها، وأخذت معالم مشروع التعرف على مكونات هذا الحوض الرابط للحضارات مع بعضها تترسخ في ذهن بارت وهو مازال طالباً في جامعة برلين، وما إن حصل على الدكتوراه حتى بدأ بالخطوات العملية لتنفيذه وكان والده يقف إلى جانبه فوفر له التمويل السخي والدعم المستمر. فما هي الخطوات التي اتخذها لبدء رحلته؟، بداية يجدر العودة إلى التنويه بأنه رغم الجهود التي كرسها لانجاز الرحلة الساحلية والمبالغ التي أنفقها في سبيلها لم تكن سوى الحلقة الرئيسية في مشروع كبير هدفه دراسة حوض البحر المتوسط بسواحله الأوروبية والأفريقية والآسيوية، فقد نظر إليه بأنه سوق ضخم يربط بين ثلاث كتل بشرية ويدعو شعوبها إلى تعامل سلمي وتواصل يخدم الجميع[3].

منذ مطلع 1845م تيسرت لبارت سبل الانطلاق بهذه الرحلة، بيد أن بارت رأى أن يمهد لها من الناحية العلمية، وذلك بالاستفادة من مكتبات لندن ومقتنيات متاحفها والإطلاع على المراجع التي لم يتسن له الرجوع إليها، كما أنه كان على معرفة بانتشار شبكة من القنصليات الإنجليزية في معظم المدن الساحلية من البلدان التي سيزورها وهو بحاجة إلى توصيات يحملها معه لتلقي الدعم والحماية إذا ما تطلب وضعه ذلك، وخاصة أنه مازال دون الخامسة والعشرين ومازالت تجربته في بدايتها[4].

فمكث في لندن بضعة أشهر واطلع في مكتباتها ومتاحفها على ما يهمه منها وحصل على رسائل التوصية الضرورية وخاصة أن الدويلات الألمانية لم تكن ممثلة في العديد من البلدان التي سيقصدها ودعمه في ذلك كولكهاون ممثل المدن الألمانية الحرة (الهانزا) ومنها مدينته هامبورغ وبعد نيف وشهرين من العمل العلمي الجاد

---

[1]- زار خلال هذه الرحلة والتي بدأت من عام 1850 – إلى غاية 1855م، بلداناً تشمل ليبيا، وجنوب الجزائر، والنيجر، ونيجيريا، ومالي، وبوركينا فاسو، وشمال الكاميرون، وتشاد، وقطع خلال هذه الرحلة الكبرى مسافة تقدر باثنين وعشرين ألف كيلو متر، ووضع في أثرها كتاباً بالانجليزية والألمانية بعنوان:"رحلات واكتشافات في شمال ووسط أفريقيا 1849 – 1855م"، للمزيد انظر: هنريش بارت، جولات في البلدان المطلة على البحر المتوسط، مصدر سابق، غير منشور.

[2] - المصدر نفسه.

[3] - المصدر نفسه.

[4] - المصدر نفسه.

والتأكد من أنه سيحظى برعاية القناصل الإنجليز في الشمال الأفريقي ومصر والشام غادر بارت لندن وتوجه إلى باريس حيث اشترى ما يحتاجه من عدة السفر ومن بينها آلة التصوير التي أخذت تظهر في السوق قبل انطلاقه في الرحلة بسنوات قليلة، ومن باريس انطلق إلى الجنوب الفرنسي وتجول فيه، ومكث فترة في مدينة اكس استفاد خلالها من مكتبتها الهامة، كما زار مرسيليا ودخل عبر البرنية إلى إسبانيا وزار الاسكوريال وبعد قضاء ثمانية أشهر في التمهيد والاستعدادات انطلقت الرحلة الفعلية، فقد وصل طنجة في 7 أغسطس 1845م ووطئ في ذلك اليوم أرض القارة الإفريقية لأول مرة ويعتبر التاريخ الفعلي لبداية الرحلة الساحلية وعهد بارت بالرحلة من طنجة فقام بجولات إلى شاطئ الأطلسي حيث زار العرايش والرباط ثم زار تطوان، وعاد إلى جنوب إسبانيا ليركب منها السفينة وينزل في الجزائر في 28 سبتمبر 1845م وكانت المواقع الأثرية في مقدمة اهتماماته مثل شرشال وآثار يوليا وتيبازه وضريح الملوك وقبر الرومية وزار قسنطينة وعنابة، ومن هناك سافر على متن مركب حكومي فرنسي يحمل البريد إلى تونس واستغرقت زيارته لها أكثر من خمسة أشهر قام خلالها بجولات عديدة شملت معظم سواحلها وقسم غير قليل من مناطقها الداخلية[1].

بدأت أولى جولاته في المنطقة البونية التي لا تقل جمالاتها الطبيعية عن ثرواتها التاريخية، ووجه اهتمامه أثناءها إلى التراث الحضاري البوني ومراكزه في قرطاج وعتيق والمرتفعات الجميلة المحيطة بزغوان ذات المركز الديني الذي خصه بشيء من التفصيل، بعد ذلك قصد الساحل التونسي ما بين تونس وصفاقس وحيث أخذ يصبح رتيباً في المنطقة الممتدة من الحمامات حتى سوسة غادرها ليزور القيروان في ظل حماية بريطانية على أن قيوداً وضعت لزيارته القصيرة للمدينة حالت دون تمكنه من رصد حركتها وغادرها دون أن يقدم وصفاً يتماشى مع مكانتها، وهذا ما دعاه إلى التوجه إلى صفاقس التي تلي تونس في حيويتها وحركتها وكان ينوي أن يركب البحر منها إلى جزيرة مالطا فلم يجد سفينة تتناسب مع برنامجه لذلك عاد إلى تونس وسافر منها إلى مالطا ومكث فيها ثلاثة أسابيع، بعد عودته منها في 22 فبراير 1846م قام بجولة شملت بنزرت والبحيرة وعاد إلى تونس عبر ماطر[2].

في 5 مارس 1846م غادر تونس قاصداً طرابلس براً وقام في إطار ذلك بعدة جولات في داخل الأراضي التونسية ومن ضمنها وادي مجردة ومدينة الكاف وآثار مدينة عشتروت الفينيقية وكذلك لحيس ومغراوة مركز قائد أولاد عيار كما زار خليفة الماجر، آملاً أن يؤمن وصوله إلى منطقة الحدود الجزائرية ليعود منها عبر قفصه إلى بلاد الجريد، بيد أن اضطراب الأوضاع هناك حال دون بلوغها وكان عليه أن يحول طريقه إلى قابس مروراً بالقيروان وبعد ذلك توجه إلى جزيرة جربة (يكتبها جربى) وهناك بدأ استعداداته لبلوغ حدود ولاية طرابلس الغرب في قرية البيبان ورافقه إليها شاوش ورغمه[3].

في فبراير 1846م استفاد بارت من وجوده في مالطا وبعث بالبريد رسالة موجهة من ممثل المدن الحرة الألمانية (الهانزا) السير كولكهاون إلى الدكتور ديكسون طبيب باشا طرابلس الخاص، بحيث يرتب مع القنصل الإنجليزي في طرابلس[4] مسألة أمان سفر بارت عبر حدود ولاية طرابلس الغربية حتى مدينة طرابلس.

في الأول من أبريل 1846م دخل بارت أراضي الولاية ومعه توصيات أخرى إلى العديد من الشخصيات من بينهم سعيد بوسهمين، وكان من الشخصيات المرموقة وشغل منصب قائد زوارة وعزله الوالي خوفاً من نفوذه وحظر عليه دخول زوارة لكنه استفاد من زيارة بارت واستقبله في منزله دون خوف من السلطة العثمانية[5].

وقدم بارت وصفاً لزوارة، وصبراته، والزاوية، وطرابلس التي مكث فيها ستة أيام. وعبر عن منظر طرابلس عندما شاهدها أمامه قادماً من الغرب بقوله: (برزت المدينة بطلعتها المهيبة تماماً الفائقة الجمال بأسوارها العالية البيضاء ذات الفرضات ومآذنها الشامخة فوقها...)[6] لم يقض في طرابلس سوى ستة أيام قضاها في زيارة معالم المدينة والتعرف على رموز الحكم فيها، وشراء لوازم المرحلة القادمة من الرحلة من الجمال إلى المؤونة واستئجار مرافقين.

وإذا كان لم يتوقف طويلاً أمام وصف هذه المدينة التي ينطلق منها وينتهي فيها أقصر طريق إلى بلاد السودان، والعريقة في الربط ما بين الشمال والجنوب، فإن هذا يعود إلى أنه لا يريد أن يكرر المعلومات التي في حوزة الأوروبيين ويصرف اهتمامه إلى توفير معلومات جديدة، فهو يسهب في تناول خليج سرت ويدقق في المصادر

[1] - المصدر نفسه.
[2] - المصدر نفسه.
[3] - المصدر نفسه.
[4] - القنصل الانجليزي الموجود في طرابلس خلال زيارة بارت هو (وارنجتون)، وقد ساعده كثيراً ودلل له جميع الصعاب أثناء رحلته داخل الاراضي الليبية.
[5] - هنريش بارت، المصدر السابق، ص223.
[6] - المصدر نفسه، ص223.

القديمة ورواياتها عنها إلى درجة أنه قدم بحثاً غير مسبوق في زمانه عن المنطقة وعندما وضع هامشاً لطبوغرافية سرت استغرق منه ذلك الهامش حيزاً غير معهود سبعة عشر صفحة، فانقلب الهامش إلى بحث استعرض فيه حصراً ومقارنة واستنتاجاً جمع المادة الواردة عند الكتاب القدماء والجغرافيين والرحالة العرب وآراء البحارة ومشاهداته وجاء بذلك بعمل لا يجاريه فيه أحد، ومثل هذا ينطبق على وصفه لبدة الكبرى، وإذا قارنا حجم فصول كتابه فإننا نلمس تطبيقه مبدأ الاهتمام المكثف بالمدن أو المواقع الأثرية التي لم يسبق أن وصفت أو أن هناك أخطاء تكتنف المعلومات المتوفرة في الأعمال الأوروبية حولها، لقد خصص بارت في كتابه 52 صفحة وللمغرب و20 صفحة للجزائر، و175 لتونس، ولمالطا مع شمال تونس 19 صفحة بينما يخصص لليبيا 304 صفحة أي أكثر من نصف حجم الأصل الألماني الذي يقع في 576 صفحة، ولما كانت الجزائر وقتئذ تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية منذ حوالي 15 عاماً والمعلومات الأوروبية حولها في تزايد نراه يركز على مشاهداته ورصد الأوضاع بها وفي ذلك يختلف في أسلوب تناوله لتونس وليبيا اللتان شكلتا الاهتمام الأبرز في كتابه عن الرحلة الساحلية، وهذا ما نلاحظه من عدد الفصول المخصصة لكل من البلدان التي زارها ونشر وصفها في الجزء الأول من الرحلة، فقد خص كلاً من المغرب والجزائر بفصل واحد، وعقد لكل من تونس وليبيا ثلاثة فصول وأكثر وحدد في المقدمة هدفه بقوله: (لم يكن هدفي في وضع رواية عن مصير رحلتي، ولم يتهيأ لي أيضاً وصف البلدان من حيث ثرواتها المعدنية وحياتها النباتية والحيوانية، لقد وصفت البلدان طبقاً لتشكل طبوغرافيتها وخصائصها الأثينية وتقصيت أحوالها الماضية ووضحت المعالم التي تطبع البلدان)[1].

قام هنريش بارت في هذه الرحلة، التي ترجمها إلى العربية فضيلة الأستاذ الدكتور عماد الدين غانم – رحمه الله - رؤية أخرى عن البلدان المطلة على البحر المتوسط، فلم تكن الرحلة التي قام بها عام 1845م رحلة عادية، بل كانت على درجة عالية من الأهمية العلمية والتي امتدت إلى ثلاث سنوات حتى عام 1847م، وقد حاول فيها الرحالة الألماني أن يكون فكرة شاملة عن المكون البشري والغطاء النباتي، والجيولوجي، والأثري لهذه المدن نظرا لأهميتها الاستراتيجية إلى الدول الأوروبية، وكذلك لحوض البحر الأبيض المتوسط على مر العصور.

وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهته في رحلته هذه في تلك المدن، إلا أنها تقدم، كما يبين مترجم الكتاب، صورة للمدن الواقعة على شاطي البحر المتوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بكامل تفاصيلها ودقائقها بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها من أمثال الأمير النمساوي لودفيغ سلفاتور، والرحالة جيمس ريتشاردسون، والرحالة آرفين باري، وهذا ما شجعنا على التعليق عليها وضبطها وسنقوم بتقديمها للقارئ في القريب العاجل بعون الله تعالى لتكتمل الجوانب التي تركز عليها باقي الكتابات الغربية في فترة العهد العثماني من تاريخ تلك المدن والتي من ابرزها محور دراستنا مدينة مصراته.

من خلال رصد شخصية هنريش بارت وظروف رحلته إلى البلدان المطلة على البحر المتوسط، يمكن أن نستنبط بعض الملاحظات التي تفيد مدى صحة انطباعاته وأوصافه لتلك البلدان التي زارها ويمكن تلخيصها كما يلي:

- انطلاقاً من نظرة استقرائية لظروف الرحالة الألماني بارت، ومحيطه الثقافي، لا يتبين أن رحلته إلى البلدان الواقعة على البحر المتوسط كانت وراء هدف علمي بحث، أو أغراض أثرية أو جيولوجية أونباتية صخرية، لتلك المناطق، فالهدف الأساسي الذي تحكم في رحلته يتجلى في خدمة السياسة الأوروبية، وخير دليل على ذلك الدعم الذي تحصل عليه من القنصل الانجليزي في ليبيا "وارنجتون"، والقنصليات الانجليزية والالمانية في باقي المدن التي زارها، وتوفير كافة الخدمات له حتى يحقق النجاح في رحلته وتسجل انطباعاته عن تلك المدن، وبناء على هذا الدعم الأوروبي لرحلته، يمكن القول أن المعلومات والأحكام التي كان يسجلها ويرسلها تباعاً ستكون محل اهتمام تلك السلطات التي ستعمل على الاستفادة منها.
- لم يجد بارت أي صعوبة في نقل مشاهداته وما سمعه من روايات شفوية عن سكان تلك المناطق والمدن التي زارها بفضل معرفته وإلمامه باللغة العربية، لا بل نجده ينوه احياناً إلى التحدث بلهجات تلك المدن، ويقارن بينها، مما ساهم في تسهيل مهمته البحثية في كل ما يتعلق بالمدن التي زارها.

وعودة إلى خط سير بارت في الأراضي الليبية فالملاحظ أنه التزم بالسير عبر الشريط الساحلي إلا عند مروره بالجبل الأخضر، على عكس ما اتبعه في حالة تونس والجزائر حيث زار قسنطينة ومناطق داخلية من تونس، فقد سار طريقه عبر تاجوراء ووادي المسيد وقصر القربوللي وسيدي عبد العاطي ولبدة الكبرى ويذكر أنه توجه يوم 17 أبريل 1846م إلى ساحل الأحامد ومنه إلى وادي كعام ومنه إلى زليتن ثم مصراته[2]. فما هي الانطباعات التي قدمها عن مدينة مصراته وسكانها؟.

---

[1] - هنريش بارت، المصدر السابق، ص7.

[2] - نشير هنا إلى أن الفترة التي وصل فيها بارت إلى طرابلس الغرب كان والي طرابلس في العهد العثماني الثاني محمد أمين باشا :"1842- 1847م"، للمزيد انظر: شارل فيرو، الحوليات الليبية، ترجمة محمد عبدالكريم الوافي، جامعة قار يونس، بنغازي، 1994، ص460 وما بعدها.

- كما نود الإشارة أن وصول هنريش بارت إلى مدينة مصراته قادماً إليها من مدينة زليتن، كان على تمام الساعة السادسة والنصف مساء من يوم الأحد الموافق 19/ أبريل/ 1846م. للمزيد انظر: هنريش بارت، المصدر السابق، ص406.

3- انطباعات هنريش بارت عن مدينة مصراته وسكانها:

- **نص المخطوط: يقول بارت عن وصوله إلى مصراته:**

(الوصول إلى مصراته[1]) :-

ووصلنا بعدها عند الساعة 2½ بعد الظهر على خط مواز تقريباً لمرسى زريق على الشاطيء إلى نجع بدو كبير، حيث أراد الشيخ الذي يرافقني، ويسافر بكل راحة أن يقضي الليل، ولم تكن رغبته أقل من جماعتي إلا أنني تابعت السير بحيث نبيت في مصراته، وقد انصاع الشيخ لرغبتي لقد كان رجلاً تقياً، وما إن يشير موضع الشمس إلى وقت الصلاة فإنه لا يهمل أن يتراجع قليلاً، ويقف أمام الواحد الأحد ويسجد في الرمل.

- **مصراته :-**

لقد غدا الطريق عسيراً نوعاً ما إذ نبتت المنطقة المكسوة بالخضرة صحراء تامة .. ولم ينقلب فيها الرمل إلى هضاب عالية مثل المنطقة خلف تاجوراء، إلا أنه كان غير محتمل إذ أخذ يضرب وجوهنا، ومما أثار الطريق، وأخيراً حوالي الساعة 6½، وصلنا البساتين الأولى من المزارع الواسعة التي تتخذ شكل واحة، وتشكل مجموعة منفصلة تدعى الزاوية[2] ولكن لم نصل إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة إلى البيت الواسع لعبد الله بك المضياف شقيق بك زليطن، وهو يشبهه في الشكل، ووجدنا هنا حشداً من الحجاج، ويقدم عبد الله الطعام لبضعة مئات منهم أثناء موسم الحج، ويؤمن سفر الفقراء منهم إلى بنغازي بالسفينة مجاناً، وبالطبع فإنه يكتسب بذلك بين أقرانه صيت رجل تقي يخاف الله، إلا أن جماعتي أبدوا استياء من أنه قد سمى نفسه عبد الله عوضاً عن اسمه الحقيقي.

إن مكان إقامتنا كان في أحسن الأحوال بسيطاً ومتواضعاً، إلا أنه كان يمكن تحمله تماماً، لو أنه كان خالياً من الحشرات، التي تجمعت إثر هذه الحركة الكبيرة للحجاج الذين لم يكونوا نظيفين كثيراً، ورغم الاجهاد الناجم عن السير لمدة ثلاث عشرة ساعة في ظل حرارة معتبرة لم أرقد وندمت صميمياً لأنني لم أنصب خيمتي الصغيرة، حيث كان بوسعي أن أنام دون إزعاج بسبب إجهادات النهار، إلا أنني قررت قدر الإمكان ألا أنام ثانية في بيت غريب.

- **مصراته والاستعدادات للرحلة حول سرت:**

كرست اليوم التالي للتعرف تفصيلياً على حالة هذا المكان لا شك أن مصراته أخذت اسمها من قبيلة أمازيغية، فمصراته من القبائل السبعين التي تشكل صنهاجة، وهي بالمعنى الدقيق مكان السوق، ومقر قضاء يتشكل من واحات تضم 44 قرية، وعدد سكانها يتراوح ما بين 12000-14000 نسمة، من بينها 150 عائلة يهودية تسكن مبعثرة في هذه القرى، وبذلك تكتسب هذه المجموعة الرئيسية طابعاً حضرياً نوعاً ما، أما بيوتها الطينية المنخفضة ذات الأفنية الواسعة، والحجرات المسقوفة بالقش، أو جريد النخيل – إن بيت البك هو الوحيد المشيد من الحجارة – فلا تقع مبعثرة في الواحة، بل تشكل مجموعة ذات ممرات منتظمة، وينعقد هنا سوق كل يوم اثنين، ويخصص له بازار صغير، في حين يقام في القضاء بأكمله ثلاثة أسواق أسبوعياً إن اسماء القرى 43 التي

يضاف إليها القرية الرئيسية اسم السوق هي حسب بيانات المالطي رجيني مراقب الحجر الصحي المحلي، الذي تفضل بتسليمها إليَّ، كما يلي:- الزاوية، الشراكسة، البلابله، الجهانات، زموره، الزناده، المقاصبة، إقزير، الفراطسه، باجو، ضرارطة، التيك، عبّاد، المسور، المقاوبة، الدرادفه، قليوان، يِّدر (ربما الدير)، سور سويد، التواكليه، رأس علي، الرملية، قراره، الزروق، الدكيران، القداريه، القراقمة، القوشي، شيرات، بن سلطان، أم التين، السواطي، الدزيرة، مرباط (سيدي مرباط)، قريتا، قصر أحمد، الغيران، السوابيه، السوالم، بودبوس، النبك، سيرك، بوشعاله، وتسقى البساتين من مياه آبار محفورة وتستعمل في ذلك ما يدعى بالدولاب الفارسي، وبكل أسف يلاحظ هنا أيضاً، أن عدداً كبيراً من البساتين ما عدا النخيل قد تقلص حتى النصف بسبب النقص في السقاية اللازمة، وأصبحت داشرة، قد يكون من المرغوب، أن يوجه اهتمام عبد الله بك أحياناً من التقى ويوليه للعمل، وتشكل الكثبان الضخمة المتراكمة المنفصلة عن البحر منظراً غريباً وتهدد البساتين، تمتلك هذه الواحة

[1] - تقع منطقة مصراته في شمال غرب ليبيا، عند الأطراف الشمالية الغربية لخليج سرت، وإلى الشرق من مدينة طرابلس بحوالي 210كم، ويحدها البحر المتوسط من جهتي الشمال والشرق، وما جعلها تتميز بواجهتين بحريتين، طول سواحلها البحرية حوالي 130كم. ويحدها من الغرب منطقة زليتن، ومن الجنوب الغربي منطقة بني وليد، ومن الجنوب الشرقي سرت، وفلكياً تقع بين دائراتي عرض 31.33 و 23 . 32 شمالاً، وبين خطي طول 36. 14 و22. 15 درجة، وتبلغ مساحتها 3637كم. للمزيد انظر: ونيس عبدالقادر الشركسي، و حسين مسعود أبو مدينة، جغرافية مصراته، دار مكتبة الشعب للطباعة والنشر والتوزيع، مصراته، 2010، ص3.

[2] - منطقة زاوية المحجوب هي التي يقصدها بارت، وهي تبعد مسافة 12كم عن مركز المدينة، وتنسب للشيخ إبراهيم المحجوب، الذي أسس فيها الزاوية في القرن السابع أو الثامن عشر الميلادي. للمزيد انظر: ونيس عبدالقادر الشركسي،المرجع السابق، ص153.

ثلاثة مرافيء وبالأحرى مراسي، تستخدم تبعاً للفصل والرياح، والأفضل بينها وبالأحرى المرسى الوحيد الصالح، يبعد عن بيت البك أكثر من ساعتين خلف رصيف صخري منخفض يبرز في ثلاثة رؤوس منفصلة، ولهذا دعاه الإغريق باسم كفالاي، ويحمل الخليج المتشكل حالياً هنا اسم الولي بوشعيفه، الذي يبعد ضريحه ربع ميل، وحسب رأي النقيب بيتشي، فإنه على مسافة خمْس ميل بحري ألماني(*)[1]عن الشاطيء، ويبلغ عمق الماء، ست قامات(**)[2]مع أرض طينية، لقد علمت في مصراته، أن قافلة فزان التي يرافقها الرحالة الانجليزي جيمس ريشاردسون(***)[3]، الذي سبق وانطلق من طرابلس نحو غدامس، وكان يعتزم التوجه إلى بلاد السودان، ولكنه عاد عن طريق غات وسوكنه، غادرتْ مصراته قبل ثلاثة أيام قاصدة طرابلس، أي أن (القافلة) مرت على مسافة من جانبنا عندما كنا في لبدة.

لم يكن بوسعي للأسف الانطلاق يوم الاثنين في الصباح الباكر، حسبما كنت أرغب فقد استلزم الأمر الذهاب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات من أجل رحلة سرت، وبسبب بعد المكان لم تفتح قبل العاشرة معظم دكاكين السوق الصغير، حيث الكتان والبرانس[4] والمناديل وما يشابهها، ويجب أن يذكر السجاد الممتاز الغليظ الخيط، باعتباره من منتجات مصراته، التي تشتري هنا بأسعار رخيصة، وكذلك إخراج الجمال المصنوعة من شعر الماعز، والأواني الفخارية، وعلى كل حال توجد هنا جميع المواد الغذائية التي تنتج في البلاد، ووجدت أغناماً سمينة جداً وصوفاً ممتازاً، وأما الشعير والزيت فإنه يرسل من هنا إلى الأسواق الأخرى، وأخيراً انتهت تجهيزاتي، وبعد الظهر بنصف ساعة ودعت عبد الله الذي وضع تحت تصرفي خيَّالاً حتى قصر الزعفران(*)[5]، وسرنا عبر الواحة باتجاه شمالي شرقي، قبل أن نغادرها ونستغني عن منظر صورة تضج بالحياة توقفنا في أحد البساتين الأخيرة المهملة، بحيث نملأ على الأقل قربة من صهريج كبير ذي قناطر فيه ماء رائع، وهو مرتبط مع مسجد صغير، ومحمي من سوء الاستعمال، كان علينا أن نملأ جميع ما لدينا من القرب، ولما كان المرشد لم يجد ضرورة لذلك، لم أطلب ملء المزيد ووجدت أنه من الظلم أن نزيد من حمولة الجمال المحملة أساساً حمولة زائدة في بداية الرحلة، والتي ستتناقص حمولتها بالتدريج، لأنني لم أكن على علم أننا على مدى ثلاثة أيام لن يتوفر لنا سوى ماء مالح لا يستسيغ شربه غير البدو.

بعد أن تابعنا طريقنا لمدة قصيرة بين الأشجار، ودعنا أشجار النخيل الممشوقة، ودخلنا أرضاً عارية جرداء، وكان على يسارنا ضريح بوشعيفة، وإلى الجنوب منه قليلاً آثار قلعة صغيرة، وتوقفنا فوقها، على مقربة من سلسلة الهضاب على الشاطيء، بحيث نتفادي السبخة التي تمتد يميناً ما بين هذه المجموعة من الهضاب بجانب البحر وسلسلة هضاب متقطعة في الجنوب الغربي على مساحة ضخمة، ولا تبدو الآن في هذا الفصل الذي لا يبعد كثيراً عن المطر الشتوي في شكل مستنقع مترابط، بل تأخذ مظهر بحيرة بطول 300 ستاديا(**) وعرض 70، إنها بحيرة بكل ما في الكلمة من معنى، لا بد أنها كانت كذلك في الأزمنة القديمة، إذ كان بوسع المرء أن يقول شيئاً آخر مثل سترابون: "لقد كانت تشمل جزراً، وإن السبب الرئيسي لهذا التغير يكمن دون شك بأن مصب هذه البحيرة، حيث كانت في الأصل محطة سفن قد امتلأ بالأوحال، وبذلك فقد ارتفعت أرضيته، وتتأكد صحة رواية سترابون من خلال طبيعة الموضع، لأننا عندما كنا عند سفح سلسلة الهضاب، وسرنا حوالي ثلاث ساعات مررنا عند الخامسة بسد صخري من حجارة حقول عادية، لكنها عملت بصورة ثابتة بعرض 10 أقدام، وبمسافات منتظمة، وتمتد في مربعات بارزة ينزل إليها بدرج من كل ناحية، ولها طابع السد، ويبدو أنها كانت مجهزة كرصيف للرسو ومن دون ذلك قد ينظر إليها على أنها طريق عبر المستنقع يكفل ربط دواخل البلاد مع شاطيء البحر، أو أنها قناة جر الماء البيزنطية إذا جارينا رأي الأهالي الذين يطلقون عليها اسم "الساقية متاع الرومية).

(*) يبلغ الميل الألماني حوالي 7½ كم (م) .

(**) في الأصل فادن: ويتراوح ما بين 170-180 سم (م) .

(***) يقصد الرحلة التي قام بها في العامين 1845-1846 إلى غدامس عبر الجبل الغربي، ثم إلى غات ومنها إلى مرزق، وبعد ذلك بثلاث سنوات انضم بارت والألماني وافرفيغ إلى ريشاردسون في الرحلة الكبرى التي شملت معظم بلدان ما وراء الصحراء والتي استغرقت خمس سنوات ونصف وكانت وراء شهرة بارت في اطار الرحلات إلى الدواخل الأفريقية ووضع في إثرها كتاباً في خمسة مجلدات. وأما كتاب ريشاردسون عن رحلته إلى غدامس وغات ومرزق فقد ترجمها الهادي أبو لقمة بعنوان "ترحال في الصحراء" وصدرت ضمن منشورات جامعة قاريونس 1993 (م).

4 - الذي يقصده بارت من كلمة البرنس هي الطاقية المصراتية، وهي عبارة عن غطاء للرأس، وقد عرفت بهذا الاسم لأن سكان مصراته توارثوا صناعتها يدوياً من القماش القطني أو الكتان، على شكل مخروطي ينتهي من= =الأعلى بزهرة من الفتيل الذي يحاط ويزخرف بالسلك الأخضر والأزرق. للمزيد انظر: ونيس عبدالقادر الشكسي، وحسن أبومدينة، مرجع سابق،340، هامش3.

(*) عرف فيما بعد بقصر سرت ونشأت حوله مدينة سرت الحديثة (م) .

(**)مفردها ستاديوم وهي وحدة قياس تبلغ 606 أقدام (م) .

- **تحليل نص الرحلة بمدينة مصراته:**

- **أولاً التسمية والسكان:**

في اليوم الأول من وصوله إلى مدينة مصراته يتحدث بارت عن ساعة الوصول إليها ضمن خط سير رحلته قادماً من مدينة زليتن المجاورة لمدينة مصراته بقوله:" وأخيراً حوالي الساعة السادسة والنصف وصلنا البساتين الأولى من المزارع الواسعة التي تتخذ شكل واحة، وتشكل مجموعة منفصلة تدعى الزاوية"[1]، هنا يقصد بارت عن حديثه عن المزارع والبساتين الموجودة بمنطقة زاوية المحجوب، والتي تعتبر من أولى المناطق الموجودة في المدخل الغربي لمدينة مصراته، وجاء تحديد متوافقاً مع الواقع الحالي الذي تسمى به هذه المنطقة، وهي (زاوية المحجوب)، وبالعودة إلى المسافة بين مدينة زليتن ومدينة مصراته، نجد أن المسافة بين الاثنين بمقدار يومين مما تقطعه القوافل، وكانت المسافة تبلغ حوالي (11) فرسخاً، أي نحو (50) كيلو متراً، مقسمة على مرحلتين، والمسافة بين مرحلة وأخرى فرسخين، أي (28) كيلو تقريباً، وربما أن قصر مسافة الطريق بينهما مما ورد عند بارت قياساً بالواقع الحالي تكون صحيحة نوعاً ما.

ويكمل بارت حديثه بالإشارة إلى صعوبة الطريق التي مر منها في تلك البساتين والمزارع الواسعة حتى الوصول إلى بيت "بيك" المنطقة بقوله:" لقد كان الطريق عسيراً نوعا ما"[2]، ويتابع قوله:"لم نصل إلا بعد ثلاث أرباع الساعة إلى البيت الواسع لعبدالله بك المضياف، شقيق بيك زليتن وهو يشبه في الشكل"[3]، وربما يوحي هذا النص أن للعلاقة بين المدينتين وأنهما يحكمهما نفس من يحكم هذه المنطقة الواسعة.

أما ما شاهده وسجله في دفاتر رحلته أثناء وصوله إلى بيت البيك عبدالله وجود حشود بالمئات من الحجاج المارين من المنطقة، وهي الرحلات التي كانت تتم بشكل جماعي، وعرفت في المصادر التاريخية باسم (ركب الحاج) أو (ركب الحجيج) أو بمصطلح (الركب) دون إضافة، وكان البيك عبدالله يقدم لهم الطعام وذلك بقوله:" ووجدنا حشود من الحجاج، ويقدم عبدالله الطعام لبضعة مئات منهم أثناء موسم الحج"[4]، وهذا يشير إلى الجود والكرم الذي تمتع به البيك عبدالله وسكان المنطقة من إكرامهم لضيوف الرحمن من الحجيج المغاربة والجزائريين والتوانسة الذين يمرون بمدينة مصراته ويستريحون فيها من جراء التعب والأرهاق والمعاناة من هول الرحلة التي كانت تستغرق الشهور والسنوات حتى تصل إلى الأراضي المقدسة، وكذلك ذكر بارت أن البيك عبدالله كان يؤمن سفر الفقراء منهم – أي من الحجاج – إلى مدينة بنغازي بالسفينة مجاناً، ثم نجده يعود مرة أخرى ليصف فيه مكان أقامته بزاوية المحجوب البسيط والمتواضع، إلا أننا نجده يسيء إلى تلك الجموع القادمة إلى مدينة مصراته من الحجاج بقوله:" الحركة الكبيرة للحجاج الذين لم يكونوا نظيفين كثيراً"[5]، متناسياً التعب والأرهاق الذي تعرضوا له أثناء رحلتهم لمسافات طويلة في ظل حرارة عالية وأجواء قاسية وخصوصا في بداية فصل الصيف.

في اليوم الثاني من وصوله لمدينة مصراته أشار بارت إلى اسم المدينة، بأنه قد أخذ من قبيلة أمازيغية، وأنها من القبائل السبعين[6] التي تشكل صنهاجة،[7] وهي بالمعنى الدقيق مكان السوق"[8]، وهذا ما أكده قبله اليعقوبي اليعقوبي في سنة 891ه في كتابه معجم البلدان في معرض حديثه عن بطون هوارة في طرابلس، وقال:" أن بنو مسراته وبنو ورفلة من بني اللهان من بطون هوارة، وكذلك ذكرها ابن خلدون في كتابه تاريخ ابن خلدون الذي ألفه في أواخر القرن الرابع عشر، وقال:" ومن هوارة هؤلاء بأخر عمل طرابلس قبيلة يعرفون (بمسراته) وأخر عمل أقليم طرابلس هو تاورغة، عند البعقوبي، وقصر أحمد عند ابن سعيد"[9]، ومن خلال معرفة عمل طرابلس يتأكد أن القبيلة التي ذكرها اليعقوبي وابن خلدون قد أقامت في نفس المنطقة مصراته الحالية، وأن المنطقة جاء من اسمها وبحكم اقامتها فعرفت به، أما أغسطيني فيذكر أن:"الأصول السلالية ، فإنه يمكن الاعتقاد بأن العنصر البربري ينحصر في قدامى مسراتة (هوارة جدم برانس) ... وينقسم جميع سكان مصراته إلى فريقين، يتكون

[1]- هنريش بارت، المصدر السابق، ص405.
[2] - المصدر نفسه، ص405.
[3] - المصدر نفسه، ص405.
[4]- عماد الدين غانم، المصدر السابق نفسه، ص406.
[5] - المصدر نفسه، ص 406.
[6] - وهذا ما أكده ابن خلدون في كتابه العبر حين قال:" وتضم صنهاجة بطونا كثيرة ادعى بعضهم أنها تراهق سبعين بطنا".للمزيد انظر انظر ابن خلدون، العبر، ج6، ص152.
[7] - ينتسب الصنهاجيون إلى ولد (صنهاج)، وأصل الكلمة (صناك) بالصاد المشممة زايا والكاف القريبة من الجيم، فلما عربتها العرب زادت الهاء بين النون والألف فصارت الكلمة (صنهاج)، ثم أضافوا لها تاء الجمع فتحولت إلى (صنهاجة). للمزيد انظر: ابن خلدون، العبر، ج6، مصدر سابق، ص152.
[8] - عماد الدين غانم، المصدر نفسه، ص406.
[9] - المصدر السابق نفسه، والصفحة نفسها.

الأول من الأهالي والمرابطين، والثاني من القولوغلية"[1] . وهذا القول لا يتطابق إلى ما ذهب إليه بارت في أصول سكان المدينة.

كما تتضمن كتابات بارت في رحلته معطيات رقمية بالغة القيمة، تفيد بأن عدد سكان مدينة مصراته يتراوح ما بين 12000 إلى 14000 ألف نسمة، يمثل اليهود قرابة 150 عائلة[2]، تسكن مبعثرة ما بين قرى مدينة مصراته، والتي شكلت جزء هاماً من سكان المدينة. وتذكر لنا المصادر المختلفة المتعلقة بتاريخ مدينة مصراته في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، العديد من المعلومات عن هذه العائلات اليهودية التي مثلت كياناً مستقلاً، فككل الجاليات اليهودية القليلة الموجودة في أغلب المناطق الليبية المختلفة، عاشت الجالية اليهودية في مصراتة منغلقة على ذاتها اجتماعيا، وكانت لها تجمعاتها الخاصة التي تقطنها وكانت لهم دكاكين خاصة بهم، ولا باس من الملاحظة هنا أن بارت لا يخفي تعاطفه مع هذه الطائفة التي سعى مجتهدا بوصفها بأن هذه المجموعة الرئيسية تكتسب مظهراً حضارياً، وكأنه يشير إلى أن بقية السكان من المسلمين المقيمين بالمنطقة كانوا غير حضاريين أو أنهم بدو، وهذه من المغالطات الكبيرة التي يقع فيها بعض الرحالة في كتاباتهم، وذلك من خلال الإساءة للعرب والمسلمين فيما يخفونه ما بين السطور، والتي من الراجح أنها صورة غير واقعية ولا تعكس واقع مدينة مصراته في ظل الحكم العثماني في عهده الثاني.

وبناء عليه، فإننا نعتقد أن الصورة المنقولة هي صورة فيها نوع من التحامل، وتندرج في إطار الجهود التي كان يقدمها الرحالة الأوروبيون من خلال كتاباتهم بأن الحجاج أي حجاج بيت الله الذين التقى بهم عند دخوله لمدينة مصراته "بأنهم غير نظيفين" ، ومهما يكن من أمر، فلا باس أن نسجل ما كتبه بارت، ونقوم بمقارنتها بما كتبه غيره من الرحالة الآخرين عن مدينة مصراته وجميع المدن الليبية وتقديم الصورة الصحيحة والواقعية للقراء عامة، وللباحثين بوجه خاص باعتبارها مادة ذات قيمة علمية بالغة الأهمية لا مناص من اعتمادها – طبعا بعد تمحيصها وغربلتها ومقارنتها بالمصادر الأخرى – في أي بحث علمي يروم إثارة بعض الجوانب التي تهم مدينة مصراته أو سكانها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ويذكر بارت أن بيوتات مدينة مصراته مبنية بالطين ومسقوفة بالقش وسعف النخيل، وأن البيت الوحيد المشيد بالحجارة هو بيت البيك، ويقام فيها سوق من كل يوم اثنين، بينما تقام ثلاثة أسواق اسبوعيا في المنطقة كاملة.

وإذا أخذنا بيوت مصراته بعين الاعتبار فإننا نلاحظ ان بارت لم يخصها بالكثير من الاهتمام، وان تحليل هذا النص – حسب اعتقادي – لا يقدم للمؤرخ مادة علمية يستفاد منها لكونه تحدث عن البيوتات التي شاهدها في منطقة معينة من ضواحي مدينة مصراته وقال أنها مبنية بالطين ومسقوفة بالقش وسعف النخيل، ولم يتحدث عن البيوت المشيدة في وسط المدينة في تلك الفترة، وخصوصاً إذا علمنا أن سكان مدينة مصراته أغلبهم من التجار الكبار والأغنياء في طرابلس الغرب وأن هذه المكانة التي اكتسبتها في الأساس من كونها محطة تجارية هامة لتبادل السلع والمصالح ما بين الشرق والغرب والجنوب، كما أنه لم يذكر لنا الفن المعماري لبناء المساجد الموجودة والتي كانت تتمتع ببناءات قمة في المعمار مثل زاوية أحمد الزروق، ومسجد إبراهيم المحجوب وغيرها.

إن وصفه للمدينة وعدد القرى التي تشملها تكاد لا تختلف كثيراً عن سابقيه، فيذكر وجود 43 قرية بالإضافة إلى السوق، -وهنا يقصد وسط المدينة- وأن اسماء هذه القرى قد تحصل على اسماءها حسب بيانات المالطي رجيني مراقب الحجر الصحي المحلي والذي تكرم بتسليمها لبارت وقام بذكرها في كتابه وكانت على النحو التالي:- "الزاوية، الشراكسة، البلابله، الجهانات، زموره، الزناده، المقاصبة، إقزير، الفراطسه، باجو، ضرارطة، التيك، عبّاد، المسور، المقاوبة، الدرادفه، قليوان، يِّدر (ربما الدير)، سور سويد، التواكليه، رأس علي، الرملية، قراره، الزروق، الدكيران، القداريه، القراقمة، القوشي، شيرات، بن سلطان، أم التين، السواطي، الدزيرة، مرباط (سيدي مرباط)، قريتا، قصر أحمد، الغيران، السوابيه، السوالم، بودبوس، النبك، سيرك، بوشعاله"[3]، أن القبائل في مدينة مصراته هم كغيرهم من سكان بقية المدن الليبية الأخرى، فسكان هذه المدينة هم هم مزيج من العرب والأمازيغ واليهود الذين استوطنوا هذه المدينة واستقروا بها، ومن خلال البحث الحديث في بعض المصادر عن ما ذكره بارت من اسماء هذه القرى أو القبائل القاطنة في المدينة، فنجد أنهم ينقسمون إلى قسمين وهم على النحو التالي:

---

[1] - هنريكودي أغسطيني، سكان ليبيا، تعريب خليفة محمد التليسي، ج2، توزيع الدار العربية للكتاب، د.ت، ص242.

[2] - تذكر بعض الدراسات الحديثة إلى قدم الوجود اليهودي في طرابلس وبعض المدن الليبية الأخرى، إذ يعتقد بعض الباحثون أنه يعود إلى القرن الأول للميلاد، إثر الاضطرابات التي شهدتها منطقة برقة التي كانوا قد لجأوا إليها في فترات سابقة بعد تدمير مدينة القدس.للمزيد انظر: مصطفى عبدالله بعيو، المشروع الصهيوني لتوطين= =اليهود في ليبيا، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1975م، ص33. وكذلك: فرانشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، (د.ت)،ص21.

[3] - هنريش بارت، المصدر السابق، ص403.

أولاً: الأهالي وهم:

- أولاد المحجوب، دكيران، قزير، زمورة، الكوافي، المطاردة، خدام الزروق، الدبابسة، قصر أحمد، الزاوية، الشحوم، الصوالح، أولاد سيدي فتح الله، أولاد بعيو، أولاد بوشعالة، أولاد عبدالخالق، فواتير الغيران، الجرشة، الهوامل، الغرابي، معدان، السواوة، الشهوبات، زريق، النعائمية، البركات، الطياش، المدنيون.

- **ثانياً: الكوارغلية وهم:**

- يدر، الرملة، المقاصبة، عباد، الشواهدة، الزوابي، الجهانات، البلابلة، الضرارطة، رأس علي، الدرادفة، الشراكسة، الفراطسة، قرارة، المقاوبة[1].

وتقريباً نفس العدد الذي ذكره بارت وهو 44 قبيلة تنتمي إلى مدينة مصراته، فقط الشيء الذي فيه اختلاف بعضا من اسماء القبائل، فلربما تغيرت عما كانت تسمى به فترة رحلة بارت للمدينة، وفي الدراسة التي وضعها هنكريكودي أغسطيني، الذي كان ضابطاً إيطالياً برتبة عقيد في المكتب العسكري بولاية طرابلس الغرب، عن سكان ليبيا فقد بين أن جميع سكان مصراتة ينقسمون إلى فريقين، يتكون الأول من الأهالي والمرابطين، والثاني من القولوغلية وذكرهم على النحو التالي.

- **أ. الأهالي:** وهم الكوافي، قصر أحمد، الزهاوي، القزير، تكيران، المغاورة، الحدادة، زمورة، الرملة، الزواوية، المطارد، التعالمية، زريق، الغرابي، الطياش، معدان، السواوي، الشهوبات، البركات، العبادلة، الهوامل[2].

- **ب. مرابطون وأشراف:** أولاد سيدي فتح الله، أولاد أبي راوي، الصوالح، الشحوم، أولاد بعيو، أولاد عبدالخالق، أولاد أبي شعالة، الفواتير.

- **ب: عناصر وافدة من جهات مختلفة:** أولاد المحجوب، أولاد سيدي أبوتركية، الهمامله، الشتاونة، المدنيون، خدام الزروق، شرفاء المواطين.

- **ج: قولوغلية:** المقاوبة، القرارة، أولاد بن خضورة، المجاوب، الفراطسة، الشراكسة، أولاد أحمد السركسي، الحمادة، الشنوبات والبالات، الدرادفة، الرضاونة، المعالقة، يدر، رأس علي، الضرارطة، اللابلة، الجهانات، الزوابي، الشواهدة، عباد، المقاصبة، الرملة[3]. من خلال تتبعنا لما قدمه أغسطيني نجد أنه في الكثير من الأحيان قد خلط بين اسماء العائلات والقبائل بمدينة مصراتة، ولذا نجد أنه اختلف اختلافاً كلياً عما جاء به بارت وما قدمه بعض الباحثين المعاصرين حول عدد القبائل وتقسيماتها.

ثم يتحدث بارت عن مروره ببعض البساتين المزروعة بأشجار النخيل، وأنها تسقى من آبار مياه جوفية، وقد أهملت وأصبحت داشرة، وتهددها الكتبان الرملية الزاحفة.وجود شجرة النخيل في منطقة مصراته قد أدى إلى حركة تجارية بينها وبين المدن المجاورة لها، فالتمور كانت تحمل من مصراته إلى زليتن والخمس ومسلاته.

ثم يتحدث بارت عن المرسى الوحيد الصالح للملاحة البحرية، والذي يبعد عن بيت البيك عبدالله أكثر من ساعتين خلف رصيف صخري منخفض يبرز في ثلاثة رؤوس منفصلة[4]، ولهذا دعاه الأغريق باسم كفالاي[5]، ويحمل الخليج المتشكل حالياً اسم الولي بوشعيفة الذي يبعد ضريحه ربع ميل[6].

- **ثانياً التسوق في مدينة مصراته قبيل الرحلة إلى مدينة سرت:**

---

[1] - الانترنت، البحث في اسماء قبائل مدينة مصراته، صفحة الحكواتي، قصة الحضارة العربية في مكتبة رقمية واحدة.

[2] - أغسطيني، سكان ليبيا، مصدر سابق، ص244.

[3] - المصدر نفسه، ص 244- 294.

[4] - الرؤرس الثلاثة المنفصلة كان قد أوردها "بطليموس" الجغرافي الشهير باسم "ترايرون أكرون" أي "الرؤوس الثلاثة"، لأنها تتكون من ثلاثة رؤوس من اليابسة موغلة في البحر وقد سكنتها قبيلة "ميسوراته" فسميت باسم هذه القبيلة مصراته، وهو الاسم الذي تعرف به الآن، كما أنها عرفت باسم "ذات الرمال". للمزيد انظر: الانترنت، البحث في اسم مدينة مصراته، بوابة أفريقيا الإخبارية.

[5] - تحدث المؤرخ الروماني استرابوا عن كيفالاي (مصراته) وهي تعتبر الحدود الغربية لخليج سرت، وهي أحدى المرافئ التي استخدمت كمرافئ للمراكب، ومن المواقع الهامة التي يرجح أنها ذات أهمية تجارية، وقد تم العثور على الكثير من الفخار حول الميناء، كما أشار بعض المؤرخين المحدثين إلى كيفالاي بأنها رأس قصر أحمد بمصراتة، وهي النهاية الغربية لخليج سرت وسبخة تاورغاء. للمزيد انظر: أحمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، 1993م، ص161. عبدالسلام محمد شلوف، الأسماء القديمة للمدن والقرى الليبية، مجلس الثقافة العام، طرابلس، 2009م، ص36.

[6] - هنريش بارت، المصدر السابق، ص406.

في اليوم الثالث والأخير من وصول بارت لمدينة مصراته، بدء يستعد للانطلاق وأستكمال بقية رحلته متجهاً إلى المحطة الموالية، وهي مدينة سرت الواقعة شرقي مدينة مصراته، والذي حسب ما ذكر:"استلزم الأمر الذهاب إلى السوق لشراء بعض الحاجيات من أجل رحلة سرت"[1]، وخلال تجوله في أسواق مدينة مصراته وجد البضائع متمثلة في: الكتان، والبرانس، والمناديل، والسجاد الممتاز، وأن الأسعار رخيصة، وكذلك أشار إلى وجود إخراج الجمال المصنوعة من شعر الماعز، والأواني الفخارية[2]، والمواد الغذائية، والصوف، والشعير، والزيت.

إن هذه السلع المختلفة التي أشار لها بارت في دكاكين مدينة مصراته، كانت تمثل وإلى حد بعيد المجالات الأساسية التي تدور في فلكها تجارة كبار تجار مدينة مصراته، كما تمثل جانباً آخراً مكملاً لآلية الحركة التجارية بين مدينة مصراته وبقية المناطق المجاورة لها، وهذه السلع يمكن وضعها كذلك تحت بند صادرات المدينة وخصوصاً السجاد[3] التي تعد ذات أهمية في ولاية طرابلس الغرب، حيث تساهم في توفير احتياجات السكان وهي تقوم إلى جانب صناعة النسيج في الأرياف والمراكز العمرانية وخاصة مصراتة، التي تعتبر من أهم مراكز تصريف هذا الإنتاج منذ القدم[4].

وفي نهاية جولته بسوق ودكاكين مدينة مصراتة يقول:" وأخيراً انتهت تجهيزاتي، وبعد الظهر بنصف ساعة ودعت عبدالله الذي وضع تحت تصرفي خيالاً [5]حتى قصر الزعفران"[6]، الذي شيده العثمانيون في عام 1842م 1842م بمدينة سرت، وعرف بقصر الزعفران.

وخلاصة القول مما أوردناه نستنتج أن وصف هنريش بارت لمدينة مصراتة لم يكن بذلك المستوى من حيث عمق وأهمية المعلومات، فجاءت مقتضبة وضحلة أحياناً، وقد يكون مرد ذلك أساساً إلى قصر الفترة التي قضاها في ربوع مدينة مصراتة، والتي لم تتجاوز الخمسة أيام، ومع ذلك قد رسم لنا الملامح الأساسية لمدينة مصراتة، وقدم لنا نصوصاً سلطت الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بالمدينة، سواء منها التاريخية، أو الاقتصادية، أو الجغرافية، وهي نصوص يستفاد منها الباحثين في كتاباتهم التاريخية حول المدينة.

[1] - المصدر نفسه.

[2] - من أهم الصناعات الفخارية التي كانت تصنع في مدينة مصراته الجرار، والخوابي، والازبار، والأفران.

[3] - أخذت منطقة مصراتة صيتا وشهرة في الصناعات النسيجية التي كان من أهمها: الكليم، والمرقوم، والفرشة، والبطانية، حيث اعتمدت صناعة السجاد على خامة الصوف ذي الألوان الطبيعية، أو الأصواف المصبوغة بألوان زاهية، وتقوم النساء بصناعة الكليم الذي يحاك بواسطة الأنوال الخشبية اليدوية.... وتميزت مصراتة بصناعة الكليم، حيث ينسب الكليم الجيد إلى منطقة مصراتة كدليل للجودة والإتقان، وقد تميزت قبيلتا= =المقاصبة والمقاوبة بصناعته، وكان من السلع الرائجة في المناطق والبلدان المجاورة. للمزيد انظر: محمد المهدي الأسطى، الصناعات التقليدية بمنطقة مصراته أهميتها وأنواعها والعوامل المؤثرة فيها "دراسة في جغرافية الصناعة"، مجلة جامعة سرت العلمية - العلوم الإنسانية، المجلد السابع، العدد الثاني، ديسمبر 2017م، ص296.

[4] - عبدالعزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، ط2، 1971م، ص. ص 179- 180.

[5] - تزويد البيك عبدالله بخيال لمرافقة بارت حتى الوصول إلى بر الأمان خوفا عليه من قطاع الطرق الذين من الممكن ان يعترضون طريقه وسرقته، وحتى قتله ان دعت الضرورة لذلك لهؤلاء.

[6] - هنريش بارت، المصدر السابق، ص406.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبرفي تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج6، 2000م.
- أغسطيني، هنريكودي، سكان ليبيا، تعريب خليفة محمد التليسي، ج2، توزيع الدار العربية للكتاب، د.ت.
- انديشة،أحمد، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، 1993م.
- الشركسي،ونيس عبدالقادر، وحسين مسعود أبو مدينة، جغرافية مصراته، دار مكتبة الشعب للطباعة والنشر والتوزيع، مصراته، 2010م.
- الأسطى، محمد المهدي، الصناعات التقليدية بمنطقة مصراته أهميتها وأنواعها والعوامل المؤثرة فيها "دراسة في جغرافية الصناعة"، مجلة جامعة سرت العلمية - العلوم الإنسانية، المجلد السابع، العدد الثاني، ديسمبر 2017م.
- بعيو، مصطفى عبدالله، المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1975م.
- بارت، هنريش، جولات في البلدان المطلة على البحر المتوسط خلال 1845- 1847م، ترجمة وتقديم عماد الدين غانم، جمع وترتيب ومراجعة نصرالدين البشير العربي، مخطوط تحت النشر، جامعة المرقب.
- شرف، عبدالعزيز طريح، جغرافية ليبيا، ط2، منشأة دار المعارف، الأسكندرية، 1971م.
- شلوف،عبدالسلام محمد، الأسماء القديمة للمدن والقرى الليبية، مجلس الثقافة العام، طرابلس، 2009م.
- غانم، عماد الدين، تقارير غوتلوب أدلف كراوزة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1994م.
- فيرو، شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية ووضع مقدمتها النقدية محمد عبدالكريم الوافي، جامعة قار يونس، بنغازي، ط3، 1994م.
- كورو،فرانشيسكو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، (د.ت).